جمال النكتة فى الشعر

بقـــلم الأستاذ الحومانى

صاحب مجلة العروبة فى بيروت

النكتة فى أصل اللغة هى النقطة البيضاء فى الشيء الأسود ، أو السوداء فى الشيء الأبيض ، أخذها البيانيون لكل معنى يترك فى النفس لدى كشفه أثراً تظهر معه بمظهر الروعة والاعجاب . ولا يخفى الشبه بين الحقيقتين اللغوية والاصطلاحية ، فكما أن النفس ترتاع لمنظر السواد فى البياض كالحور فى العين ، ولمنظر البياض فى السواد كالقمر فى الليل ، فكذلك تأخذها الروعة لسماع قطعة من النثر أو النظم قد ضمنها الشاعر معنى أخرجه بين دقة نظر وإمعان فكر ، فهى فى عرض الحديث أو القصيدة بارزة الجمال بروزها فى سواد الليل قمرا ، وفى بياض العين حَوَرا

والنكتة البيانية كما تكون فى العلم نتيجة إعمال الفكر ، تكون فى الفن وليدة إبداع الخيال ، وتكون وليدة الطبع أو التطبع ، وإذا جاءت هزلية دعيت فكاهة ، وما أثقل على السمع أن يهزل بها متكلف ، وإذا كانت جدّية كانت وليدة الحذق وحدّة القلب ، أما الهزلية فتكاد تكون قاصرة على الطبع

قد يرى البعض أن النكتة فى الشعر محض فن لا روح معه ، والذى يوهمهم ذلك هو ظنهم أن الشاعر إنما ينظم النكتة وهو غير متأثر ، فهم يحصرون التأثر النفسى فى جانب العواطف الثائرة لحزن أو سرور ، والنكتة عندهم مجرد التفات الفكر إلى غريب معنى يكتشفه وهو يتحقق أو يتخيل ، بينما تكون العاطفة هادئة مطمئنة ؛ ولو لفتهم العقل إلى ما تتأثر به نفوسهم لدى سماعهم هذه النكتة من روعة وجمال ثم التفتوا ثانياً إلى أن تأثر السامع إنما هو نتيجة تأثر القائل لاستراحوا من هذا التأويل ، ولعلموا أن النظم إذا صدق عليه أنه شعر ، كانت روح الشاعر متغلغلة فيه ، ولكن هذه الروح تبدو جلية فى حين وتخفى على الفهم البسيط فى حين آخر ، وليس تأثر النفس الشاعرة قاصراً على ما يبعث الحزن أو السرور فيها ، وإنما يتعدى ذلك إلى كثير من أفعال الوجدان ، كالدهشة ، والغضب ، والذعر ونحوها

يلتفتون إلى أن النكتة فى الشعر إنما تنشأ عن تنبه الفكر إلى غريب معنى يكتشفه وهو يتخيل أو يتبين الحقائق ، ويغفلون عن روعة النفس وتأثرها بما تشعر من وراء هذا الاكتشاف ، فاسمع نفح الطيب يروى لك جمال النكتة فى الشعر عن شعراء الأندلس :

أعوذ بالله من أناس تشيخوا قبل أن يشيخوا
إحدودبوا وانحنوا رياء فاحذرهمُ إنهم فخوخ

مناط تأثر الشاعر فى هذين البيتين ما يشعر به من تدليس المرائين ، ولعلهم المنافقون الذين يسرون الكفر ويظهرون الايمان ، وجمال النكتة بنهما فى البيت الأخير ، وهى فيهما قاصرة على الفن ، وليست من الفن مجرد حمل الفخاخ على ظهورهم بجامع التقويس كما تشبه الناقة الهزيلة بالقوس ، والهلال بالعرجون القديم ، إذ ليس غرض الشاعر بيان أن ظهورهم محنية كالأقواس أو الفخاخ ، ولكن غرضه أن يلفت العامة إلى أن وراء تقويس ظهورهم المكذوب ما وراء تقويس الفخوخ من رياء وتضليل وغش وخداع ، فلم يتقوسوا لكبر أو عجز ، بل ليخدعوا الرأى فيطمئن إليهم فى إصلاح نفسه ، ويجعلهم محل الثقة من دينه ودنياه فيمدوا إذ ذاك أيديهم إلى ذات يده ويعمنون فيها نزاً واختلاساً

ولكن ما يجب أن ينتبه له هنا هو أن القنص علة للفنص

لاسيما إذا كانت العداوة خفية لا يمكن لعدوه اثباتها . » اهـ

وقد يحسن بنا بعد هذه المقارنة بين أصول التحقيق الجنائى فى التشريعين الأسلامى والأوربى ، أن نختم موضوعنا بكلمة جامعة للعلامة جلال الدين السيوطى تدل على سمو الغاية ، وكمال السمى الأسلامى فى التشريع القائم على تحقيق العدل وضمان المصالح الأنسانية ، وفى هذه الجملة تتجلى حيطة القاضى النزيه ، وخشيته أن يأخذ البرىء بعقوبة المذنب . قال رحمه الله : « اعلم أنك إن تخطىء فى العفو فى ألف قضية ، خير من أن تخطىء فى العقوبة فى قضية واحدة »

شرق الأردن

بشير الشريفى
المحامى

والخدعة ، وهما علة للتقويس ، وأما فى الفخاخ فالقنص له معلولان لا يترتب أحدهما على الآخر : هما التقويس والخدعة . فالتقويس يلحق الآلة التى تقبض على الطريدة ، والخداع يكون بواسطة طعم يناط بالآلة المواراة خلفه

فالخداع فى المشبه يترتب على التقويس ، والقنص يترتب على الخداع ، فالرجل المرائى يتقوس ليخدع ، ويخدع ليقنص ، وأما الفخ فيتقوس ليقبض ويناط به الطعم ليخدع ، هكذا يتبين الفرق جلياً بين المشبه والمشبه به

وجميل فى النكتة قول الآخر من شعراء نفح الطيب أيضاً :

يابدر ياشمس يانهار أنت لها جنة ونار
تجنبُ الاثم فيك اثمٌ وخشية العار فيك عار

النكتة تتحقق هنا فى ادعاء الشاعر لمحبوبه جمالاً يبلغ بالهائم فيه حداً يرى معه الحسن فى المجتمع قبيحاً والقبيح حسناً ، وادعائه أن من رأى حبيبه حمله جماله على أن لم يعذره فى اقتراف الاثم معه فحسب ، بل جعل تجنبه للاثم فيه من الاثم ، وخشية العار فيه من العار ؛ ولا يخفى ما يعضد جمال المعنى من تلاعب فى اللفظ ، وكثيراً ما يكون التلاعب من الجمال

ومن جمال النكتة قول سبط بن التعاويذى :

قل لمن أصلى هواها كبدىٌ ناراً تلظى
ياقضيب البان قدا وغزال الرمل لحظا
أنت أحلى من لذيذ النوم فى عينى وأحظى
قد بذلت الوصل فى الطيـــف فلم أعرضتِ يقظى؟
لا أرى لى ، والمودات حظوظ ، منكِ حظاً
آه من رقة خـــدٍ صيرت قلبك فظاً

جمال الشعر من هذه الأبيات يتجلى فى الأربعة الأخيرة ، أما النكتة ففى الأخير ، ولعل الفتنة فيما قبله ، ولعل مبعثها اعتراض الجملة الوسطى ، والاعتراض فى الشعر جمال يأخذ اللب بسحره ، ولعلنا نأتى على طرف منه فى آخر هذه الكلمة

كنى برقة الخد عن جمال الوجه ، وإنما خص الرقة باطلاق الخاص على العام ، وهى أحد جزئيات الجمال ، ليقابل بها الفظاظة فى الروى ، فهو من جمال الفن

لما أثبت له الجمال كان من لوازمه الاعجاب والزهو فى الجميل وهما مبعث الدلال والتجنى ، وهذان يحملان على القسوة وعدم الرأفة بالهائم فى ذيهما لكثرة العشاق حوله ، فكان إذن من لوازم الجمال قسوة القلب ، وليست النكتة فيما تسمع ، ولكنها فى إيهام جعل الرقة علة للفظاظة وهما نقيضان ، بتصرف تظهر النفس معه مظهر الروعة والدهشة

فالشاعر فى الحقيقة لم يجعل الرقة علة للقسوة ، وإنما جعل الفظاظة مسببة عن تجنى الحبيب مزهواً بجماله ، ثم كنى عن الجمال بالرقة التى هى إحدى جزئياته ، فصح له إذ ذاك تعليل الشئ بجزئىٍّ سببه

يقول شمس الدين العاملى يمدح كامل بك الأسعد نجل خليل بك الأسعد وهما من زعماء بلاد (عاملة) :

وإذا كسير علم ركبته قريحتى عنيت به عن قصد كل بخيل
إذا شئت أن أثرى صنعت سبيكة وأهديتها للكامل بن خليل

ويقول أيضاً فى معرض اللوم على ابن عمه الشاعر على شمس الدين وقد تمرض لخلاف وقع بين زعيمين اقطاعيين :

إذا ما التقى الليثان فى حومة الوغى
وكل على كلِ جرىءٌ مشيّع
فمن سفهٍ أن ينبح الكلب ضيغما وينطح ذا رَوق لدى الروع أقرع

فانك تستطيع أن تهتدى إلى النكتة فى آخر الشعر حتى تعلم الخبر الذى تقدم البيتين ثم لا ترتاع نفسك للشعر تماماً حتى تعلم أن ابن عم الشاعر أقرع . وهكذا كثيراً ما تكون النكتة ، لتسمى نكتة ، متوقفة على بيان ماهى فى سياقه

وقد تبنى النكتة على مثل خاص أو حديث خاص واصطلاح قوم خاص ، فتكون نكتة خاصة لا يرتاع لها إلا من شرك قوماً نظمت لهم فى الجهة التى بنيت عليها ، فالشاعر حيث يقول :

عزلوك لما قلت : ما اعطى ، ووَلوا من بذلْ
أو ما علمت بأن (ما) حرف يكف عن العمل ؟؟

فانما بنى النكتة فى شعره على القاعدة اللغوية القائلة : إن (ما) فى قولك : « إنما زيد قائم ونحوه » كافة عن العمل ، فلم تكن لتهتدى إلى النكتة وأنت غير نحوى ، ثم لم تكن لتتفهم التمهيد لها فى البيت الأول حتى تعلم أن الشاعر قال ذلك فى زمن لا يولى امرؤ عملاً حتى يرشى أولى الأمر كالزمن الذى نحن فيه

ومثله قول الهلالى :

وغزالٍ قلت ما الا سمُ حبيبى ؟ ؟ قال مالك